

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة ممثل الأساتذة الباحثين
الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة
رئيس مجمع اللغة العربية الأردني

سيادة راعي المؤتمر

أيها العلماء الأفاضل

سيداتي وسادتي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فإنه لشرف كبير أن أتحدّث باسم زملائي الذين وفدوا من أقطار العروبة والإسلام وغيرها، للمشاركة في هذا المؤتمر العتيّد، الذي يعقده مجمعنا الدمشقي، أقدمُ المجامع اللغوية العلمية العربية في العصر الحديث، ورائدُها في الحفاظ على تراث الأمة وسلامة لغتها، اللغة العربية الفصيحة، اللغة الجامعة والموحّدة، عبر التاريخ، وعلى امتداد الوطن العربي، من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي. وقد أصاب مجمعنا الدمشقي، دمشق التراث والحضارة العربية الإسلامية، باختيار موضوع المؤتمر وجعله تحت عنوان: "نحو رؤية معاصرة للتراث"، بكل ما يوحيه هذا العنوان من رؤى وأفكار واتجاهات. وكان لدمشق الفيحاء، حاضرة بلاد الشام، دورها التاريخي في إرساء القواعد الأولى للحضارة العربية الإسلامية، والتمكين للعربية الفصيحة وتطوير كتابتها، وجعلها لغة الدولة الرسمية، لغة الدواوين والمراسلات ولغة التعليم والقضاء وجميع الشؤون العامة. فقد كانت المنطق التاريخي للنهضة الفكرية واللغوية والأدبية وترجمة علوم الأقدمين والانفتاح على حضارات

الأمم الأخرى. ثم جاء عصر المأمون في سياقه التاريخي، ليشكّل مرحلة جديدة ومتقدّمة في مسار الحضارة العربية الإسلامية بكل مكوّناتها في مختلف العلوم والفنون والآداب.

استمر دور دمشق الفيحاء، باعتبارها مركزاً من مراكز الإشعاع الثقافي العربي الإسلامي، إلى جانب مراكز الإشعاع الثقافي الأخرى في بغداد والمدينة المنورة وقرطبة وإشبيلية والقاهرة وفاس والقيروان وتلمسان وغيرها. وكانت طريق الثقافة سابلة في جميع الأحوال والظروف، وعلى الامتداد التاريخي لعدة قرون، على الرغم من نشوء دولٍ وممالك منفصلة، ومتخاصمة في كثيرٍ من الأحيان.

كانت حقوق المواطنة في دار الإسلام، حقوقاً ثابتة ومعتراً بها. فكان العالم يخرج من قرطبة، ويتصدى للتدريس أنى شاء، ويستقر أنى شاء، وقد شارك في أعلى مناصب الدولة، دون أي حسيب أو رقيب، وكذلك كانت الكتب والمؤلفات تجد طريقها سابلة إلى مختلف المكتبات العامة والخاصة. ومما له دلالته أن كتاب الأغاني لأبي الفرج، وجد طريقه إلى قرطبة قبل أن يُطرح ببغداد.

أدّت حصيلة هذه القرون، وما واكبها من إبداع في جميع مجالات العلوم والفنون إذ ذاك، إلى إنجاز هذا التراث العربي الإسلامي الضخم في جميع مجالات المعرفة، وعلى الرغم ممّا أصابه من محنٍ وفتنٍ وحرقيٍ وتعصّبٍ مقيت، فقد وصلت إلينا بضعة ملايين من المخطوطات، ما زال أكثرها مع الأسف تائهاً ومبعثراً في أقبية دور الكتب العامة وعلى رفوفها، وفي المكتبات الخاصة في جميع أنحاء العالم.

وتدلّ الفهارس والإحصائيات التي بين أيدينا، أن بضعة آلاف من المخطوطات العلمية وصلت إلينا في الطبّ والصيدلة والرياضيات والفيزياء والكيمياء والفلك والجغرافية والهندسة والفلاحة والتعدين والفلسفة... ويلحق بهذه القائمة مخطوطات في التنجيم والسيميا والطلسمات والسحر... إلخ.

ورُبَّ سائل يسأل لماذا نُحَقِّقُ هذا التراث الضخم ونبدل في ذلك المال والجهد؟ وما قيمة مخطوطات في تراثنا العلمي في الطب والهندسة والفيزياء والفلك والكيمياء وغيرها من العلوم البحتة والتطبيقية، إذا ما قيست بموازين العصر الحاضر، وما وصلت إليه هذه العلوم من تقدّم هائل في جميع مجالاتها النظرية والعلمية؟ أليس الأولى من ذلك كله الانصراف إلى دراسة مختلف العلوم والفنون والتقنيات ووسائل الاتصالات الحديثة والحضارة العالمية كي نخطو نحو المستقبل، نحو فجرٍ جديد تلوح في أفقه ثورة علمية ومعرفية هائلة؟ هذه أسئلة وغيرها تردّها السنة كثيرة من حولنا.

لا شكّ أن دراسة الطب والهندسة والصيدلة والفيزياء والكيمياء وجميع العلوم والتقنيات الحديثة، دراسة واعية وعميقة ودقيقة، شرط أساسي لدخولنا في عصر الثورة المعلوماتية التي باتت ملامحها تتشكّل، وبسرعة هائلة، في بداية القرن الواحد والعشرين. فإنّ الدراسة الواعية البعيدة عن التبعية والتقليد الأعمى التي تقود إلى المشاركة الأصلية والمبدعة في بناء الحضارة العلمية الحديثة، لا تتمّ إلا من خلال اللغة القومية، اللغة العربية السليمة من ناحية، ومن خلال تأصيل المعرفة في الأوساط الثقافية والاجتماعية، وفي المؤسسات التربوية والجامعية ومؤسسات البحث العلمي والتقنيات الحديثة، وكذلك من خلال تحقيق تراثنا العربي الإسلامي، وما يثيره من تعليقات وأفكار ورؤى

تتحلّى بالموضوعية والروح العلمية. فإنّ هذه العوامل جميعها هي الطريق الوحيد الذي يقود إلى الإبداع وإلى نهضة فكرية وعلمية أصيلة.

فحن مثلاً، نحقق الكتب التراثية العلمية ونُدْرُسُها، لا لقيمتها العلمية في مقاييس العلوم الحديثة، ولكن لقيمتها في تاريخ الفكر العلمي الإنساني. فهي رافد مهم من روافد الحضارة الإنسانية. أليس من الحيف أن ننظر إلى منجزات إقليدس في الهندسة وابن سينا وابن النفيس في الطب وغيرهم في مجالات العلوم الطبيعية التراثية، من خلال موازين العصر، ومن حيث قيمتها العلمية في الوقت الحاضر!! ألا نجد أن الطالب في المدرسة الثانوية، مثلاً يعرف معلومات في الوقت الحاضر نوعاً وكماً، أكثر بكثير ممّا كان يعرفه إقليدس في الهندسة وابن سينا في الطب وبقية هؤلاء العلماء الرّواد في المعرفة والعلوم الدقيقه؟ ولكن هل يقلل ذلك من القيمة التاريخية لما أبدعه إقليدس في الهندسة، وما أبدعه ابن سينا والرازي وابن زهر وابن النفيس في الطب؟ وهل يمكن دراسة التطور العلمي بمعزل عن هذه الحلقات المهمة في سلاسل الفكر العلمي؟

إن تحقيق هذا التراث العلمي الإنساني، وبصورة خاصّة التراث العلمي العربي، له أهمية خاصة، ومهمة ضرورية من أجل إقامة بنيانٍ أصيل للمعرفة العلمية المبدعة لدى الطلبة والباحثين والدارسين، ومن حيث وصل الفكر العلمي بين الحاضر والماضي واستشراف المستقبل، إنه تتبّع المسيرة التاريخية للفكر والحضارة، من أجل بناء المستقبل.

وأودّ في هذا المضمّار أن أوجّه كثيراً من الأسئلة التي تدور في الذهن إلى أولئك الذين ترتفع أصواتهم وهم يجهلون تراثنا العلمي، كما يجهلون العلم نفسه، أو أولئك الذين يردّدون ما يقرأون ويسمعون دون معرفةٍ أو

تمحيص... أقول: لماذا نجد كثيراً من المؤلفات العلمية العربية التراثية، قد تُرجمت إلى اللغات الأجنبية الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والروسية وغيرها من لغات الأمم المتقدمة حديثاً؟.

وإنّ المترجمين من العلماء الذين يتقنون اللغة المترجم عنها واللغة المترجم إليها، هم متخصصون بهذه العلوم. إنهم يحرصون على تبيان مكانة المحتوى العلمي في سلّم التطور العلمي والتقني على مدى تاريخ الحضارة الإنسانية. فنراهم في غالب الأحيان ينشرون النصّ العلمي مترجماً ومحقّقاً تحقيقاً دقيقاً، ويقدمون له، باللغة المترجم إليها، الفرنسية أو الإنجليزية أو الإسبانية... إلخ دراسة يشرحون فيها محتوى الكتاب ويبيّنون مكانته في سلّم التطور المعرفي؛ إذ إنهم يكتبون للدارسين والباحثين والمتخصصين من أبناء جلدتهم... والأمثلة على ذلك كثيرة.

فكتاب "الفلاحة" لابن العوام الإشبيلي مثلاً، تُرجم إلى الإسبانية ونُشر مع "النصّ العربي"، في الكتاب ذاته، عام 1802م، وقد رأيتُه أيضاً مترجماً إلى الفرنسية بعد ذلك بنصف قرن، مع مقدمة تحليلية باللغة الفرنسية تقع في حوالي مئة صفحة، ولم يُنشر النصّ العربي في هذه الترجمة الفرنسية، فهو موجّه إلى الدارسين والباحثين والقراء الفرنسيين...

يبدو واضحاً أن ترجمة التراث العلمي العربي الإسلامي، إلى اللغات الأجنبية يُقصد به خدمة التطور العلمي والمعرفي بين أبنائهم، ووصل حلقاته؛ لما له من مكانة مهمة في تاريخ الفكر الإنساني، إذ قد تتكشف عنه حقائق جانبية، تكون سبيلاً إلى الإبداع...

ونحن إذا توجّهنا، إلى القيمة التربوية لتحقيق هذا التراث ونشره ودراسته في أطر تربوية ومعاصرة، نجد أنه حافز مهم للأجيال الشابة، كي يتعلموا

بصورة علمية ذكية وموجهة خالية من المغالاة، أن لأجدادهم إنجازات
واكتشافات واختراعات مهمة، أغنت الفكر الإنساني والحضارة العالمية.
إن تحقيق هذا التراث بدقّة، ونشره وجعله سائغاً بين الدارسين
والباحثين، وفق منهجية علمية وموضوعية، لا بُدَّ أن تصاحبه دراسات ورؤى
عصرية، تراعي قبل كل شيء اعتزاز الأبناء بأمّتهم، والانتماء إليها، وتنمي
حُبَّهم لمُثلها وقيمها، واحترام لغتها، وتثق بقدرات أمّتهم وإمكاناتها العلمية
والفكرية والحضارية.

وأختم هذه الكلمة بالتعبير باسمي واسم جميع الزملاء المشاركين في
هذا المؤتمر، عن أصدق مشاعر المحبة والتقدير لمجمعنا في دمشق قلب
العروبة والإسلام، وتقديم الشكر إلى جميع المسؤولين والعاملين على ما لقينا
من كرم الضيافة والرعاية منذ حطّت أقدامنا في هذه الربوع الغالية، في القطر
العربي السوري الشقيق.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.